

العوامل الرئيسية لنشوء

الفرق في تاريخ المسلمين

د . فاروق أحمد دسوقي

أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية
جامعة الملك سعود — الرياض

ب — الشيعة :

نشأت الشيعة كرد فعل لظهور الخوارج ، فأوجبوا الإمامة لعلي رضي الله عنه ولأبنائه ونسله وحرموها على من سواهم ، وجعلوا مذهبهم هذا في الإمامة ركناً من أركان الدين ، كما أقروا بإيمان مرتكب الكبيرة . وقالوا بعدم خلوده في النار ، مع وجوب إقامة الحد عليه في الدنيا .

وأولهم وأشهرهم الإمامية والإثنا عشرية والجعفرية . وهؤلاء اعتبرهم إبن تيمية من فئات المسلمين أو طوائف المسلمين ، ولم يكفرهم ، إلا أنهم ضلوا في بعض المسائل ولم يتدعوا .

١ — ظهور الفرق الإسلامية :

أ — الخوارج :

إنتهى الخلاف الذي نشب بين الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه وبين معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه بقبول الإمام علي التحكيم بعد معركة صفين ، وتلا هذا ظهور أول فرقة تخرج على الأمة الإسلامية بأفكار — ومبادئ وعقائد مخالفة لعقيدة الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً .

وعُرفوا بالخوارج ، وتميزوا بتكفير مرتكب الكبيرة وقالوا بتخليده في النار ، وكفروا علياً ومعاوية ومن حارب معهما ، وقالوا : ليس من الضروري أن يحكم المسلمين إمام .

بيد أن ممن ينتمون إلى الشيعة فرق أخرى كفرهم جمهور المسلمين ، منهم الإسماعيلية والنصيرية (العلوية) والدروز ، كما انتمى إليهم كثير من الباطنية .

ج - المرجئة :

تلى ظهور الخوارج والشيعة ظهور المرجئة كرد فعل للإثنين ، فرفضوا قول الخوارج والشيعة معاً في مرتكب الكبيرة ، وقالوا نرجئ الحكم عليه إلى يوم القيامة ، فليس من اختصاص العباد الحكم على العباد ، وفصلوا بين الإيمان والعمل ، واعتبروا الإيمان إقراراً بالقلب فقط ، أو قولاً باللسان ، فالؤمن مؤمن في نظرهم مهما كانت أفعاله سيئة . كما أن الكافر كافر مهما كانت أفعاله خيرة ، أي أنهم قصرُوا الإيمان على الإقرار بالقلب .

د - القدرية :

أثناء حكم بني أمية تفشت بين الناس — مع انتشار المعاصي — مقالة الجبريين الذين يعتذرون عن معاصيهم بالقدر ، الأمر الذي كان له رد الفعل الذي حدا بمعبد الجهنني إلى قول عبارته المشهورة « لا قدر والأمر أنف » ، وتبعه آخرون ، ثم تفشت مقالة القدرية بين كثير من المحدثين والتابعين في البصرة وغيرها ، حتى قيل إن الحسن البصري إمام التابعين قال بهذه المقالة ثم رجع عنها ، لكن الثابت أن المنكر للقدر مخالف لعقيدة السلف .

هـ - الجهمية :

وإذا كانت القدرية قد نشأت كرد فعل لتفشي القول بالجبر بين الناس في عهد بني أمية ، فأرادوا بقولهم إثبات المسؤولية الإنسانية عن الأفعال الخلقية بإنكار القدر نقياً للجبر ، فإن الجهمية نشأت كرد فعل للقدرية كإتجاه فكري على يد الجهم بن صفوان ، الذي استخدم منهج التأويل العقلي للآيات القرآنية استخداماً واسعاً ، مما جعله يخرج على أكثر مبادئ الإسلام ، وشذ عن الأمة في مفهوم آيات الصفات ، فعطل مدلولات هذه الآيات ونفى أن يكون لله عز وجل صفات وصف بها نفسه .

وما أعلنه الجهم أيضاً إنكاره للسمعيات والغيبيات مؤولاً لنصوص الوحي في الغيبيات تأويلاً معطلاً لمعانيها .

كما اعتبر الجهم الإنسان مسيراً ومجبوراً جبراً مطلقاً حتى على الأفعال التي يحاسب عليها . وهذا قول منكر لم يقل به أي من الفرق الأخرى .

و - المعتزلة :

مع احتدام الجدل وانصهار الفكر في العديد من المسائل حول مفهوم الألوهية والإنسان في مدرسة البصرة ، وبالجمع بين بعض آراء هذه الفرق السابقة ظهرت فرقة المعتزلة على يد واصل بن عطاء وعمر بن عبيد ، بمبادئ معتدلة نسبياً ، ثم امتد وجود المعتزلة الفكري — مع المغالاة — في العالم

العقيدة التي يدين بها أكثر المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي حتى اليوم . هذا بالرغم من مخالفة هذه العقيدة في بعض القضايا الإعتقادية لعقيدة السلف إلا أن عقيدة الأشاعرة هي أقرب العقائد للسلف ويسميه البعض الخلف .

ح - الفلاسفة :

بدأت حركة الترجمة من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية في العصر الأموي ، وتوسعت في العصر العباسي وبخاصة خلال عهد المأمون حيث انتقل معظم التراث اليوناني المتمثل في الفلسفة اليونانية إلى العربية ، وكذلك نقلت بعض الكتب الهندية والفارسية .

وقد أدى ذلك إلى تتلمذ بعض المسلمين على كتب أفلاطون وأرسطو ، واعتنقوا مبادئهم وعقائدهم ، وقاموا بمحاولة «لأسلمتها» أي لإظهارها بالمظهر الذي يتفق مع مبادئ وعقائد الإسلام ، رغم التناقض الواضح بين العقائد الوثنية اليونانية وبين عقيدة التوحيد الإسلامية الأمر الذي يجعل غاية هذه المحاولة مستحيلة وباطلة .

وهؤلاء عرفوا بالفلاسفة وأشهرهم الكندي والفارابي وابن سينا وابن مسكويه وإخوان الصفا وابن رشد ، وقد ثبت صلة بعضهم بالباطنيين الذين يعادون الإسلام في الحقيقة ويظهرون الإنتساب إليه في العلن .

الإسلامي ، عدة قرون ، ولازال تأثيرها قوياً بإعتبارها مدرسة الرأي في المسائل الإعتقادية ، حتى خروج الأشعري عليها .

وتفرقت المعتزلة إلى حوالي اثنين وعشرين فرقة كفرت الواحدة منهم الأخرى ، وظهر منهم الفلاسفة الذين تأثروا إلى حد ما بالفكر اليوناني ، وبسببهم ظهرت مشكلة خلق القرآن وتعذيب الإمام الجليل أحمد بن حنبل والإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهم من الأئمة الأفاضل .

ز - الأشعرية :

إنتهى المطاف بعلم الكلام في العالم الإسلامي بنشأة الأشعرية .

وبالرغم من أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله قد خرج على الإعتزال وعاد إلى عقيدة السلف المتمثلة في عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، إلا أن بعض الأتباع المنتسبين إليه - أي إلى الأشعري كالباقلائي والجويني والغزالي ومن جاء بعده من أئمة الأشاعرة ، حاولوا أن يهيجوا نهجاً وسطاً بين عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة وهم أهل الحديث والفقهاء من ناحية وبين أهل الرأي وهم المعتزلة من ناحية أخرى .

وانتشرت العقيدة الأشعرية في العالم الإسلامي بعدما تقلص بسببها نفوذ المعتزلة وظهر تهافت آرائهم . ولازال الأشعرية هي

لهذا كله — متمثلاً في مذهبي الحلول
للحلاج ووحدة الوجود لابن عربي ومن
تبعهما .

كما انتشرت بين المسلمين عن طريق
التصوف المفاهيم الضالة التي كان لها أثرها
السئ على التقدم الحضاري للمجتمعات
الإسلامية ، كإبطال السنن بإسم الكرامات
ولإبطال التكليف والتواكل وترك التعليم وغير
هذا من أباطيل التصوف التي كانت أحد
عوامل الجمود الحضاري في تاريخ الأمة
الإسلامية .

وبما لا شك فيه أن الطرق الصوفية
وانتشارها في العالم الإسلامي حتى اليوم من
الأسباب الرئيسية لتخلفه وضعفه .

ي — الباطنية :

الباطنيون فئة أرادوا تحريف القرآن والسنة
بالمعنى ، بعد أن عجزوا عن تحريف القرآن
باللفظ والكلمة ، فقالوا إن للقرآن ظاهراً
وباطناً ، وأن الظاهر المعلوم بمقتضى دلالات
وقواعد اللغة العربية موجه إلى العامة ، أما
الباطن فهو الموجه إلى الخاصة أي أذكىء
الناس كالفلاسفة وشيوخ الصوفية
وغيرهم .

ومن ثم فسروا آيات القرآن الكريم
تفسيرات باطنية لا علاقة لها بكلمات
الآيات وجملها على الإطلاق ، لا علاقة
لغوية ، ولا علاقة عقلية أو منطقية من قريب
أو بعيد .

وقد استفحل أمرهم وعمت فتنهم حتى
جاء الإمام الغزالي فهاجمهم هجوماً شديداً
وكفرهم متبعاً في هذا الحكم سائر جمهور
علماء المسلمين ، فأثر على مركزهم وسمعتهم
تأثيراً عظيماً بين أرجاء العالم الإسلامي حتى
اليوم .

ط — الصوفية :

كان من أثر فتح الله عز وجل الدنيا على
المسلمين تدفق الأموال على الشام والحجاز
والعراق واندفاع بعض الناس إلى الترف
والإسراف في اللهو والشهوات ، مما كان له
رد فعل عنيف عند بعض الصالحين ،
فدفعهم ورعهم إلى الاتجاه بشدة إلى الزهد
والإقلال من شأن الدنيا حرصاً على
الآخرة .

ثم بدأت حركة الزهد تتطور حيث
اتجهت إتجهاً فكرياً لتفسير الزهد وتبويره
وتفسير وجود الإنسان والهدف من حياته من
وجهة نظر خاصة اعتنقها الزهاد . ثم أصبح
الزهد تصوقاً والزهاد صوفية .

وقد بدأ التصوف في أول عهده على يد
الشيوخ الأوائل غير مخالف مخالفة واضحة
صريحة لمبادئ الإسلام ، حيث التزموا منهج
السلف وعقيدتهم وطريقتهم ، ولكنه تتطور
بعد ذلك بتأثير الثقافات والديانات الهندية
واليونانية وبفعل الأهواء إلى الامتزاج
بالفلسفات والزندقات الوثنية وديانات الشرك ،
وظهر التصوف الفلسفي الإلحادي نتيجة

ولقد تكالبت الفئات والفرق المغالية من الاتجاهات السابق ذكرها على هذا النهج المنحرف الضال في تفسير نصوص الوحي ، فكفروا كفرًا بواحًا .

وكان أكثر الباطنيين من غلاة الشيعة الفلاسفة وملاحدة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود والحلول .

وأشهر الفرق الباطنية القديمة هي الإسماعيلية والنصيرية والدروز .

وتمثل الحديث منها في القاديانية والباية والبهائية وهؤلاء جميعاً كافرون بإجماع جمهور علماء الإسلام . كذلك ظهرت الأليجية والفرهخاتية والفوقية (جمعية أنصار الله) كفرق باطنية معاصرة كافرة تنسب نفسها للإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية^(١) .

٢ - السلف (أهل السنة والجماعة)

يضيّق المجال هنا عن تحديد المفهوم التاريخي للسلف وحصرهم لما ثار حول هذا المفهوم من تنازع حيث حاولت كل فرقة من الفرق السابقة أن تنتسب إليهم أو تتسمى بإسم أهل السنة والجماعة أو تدعي إتباعها للسلف ، أو على الأقل أن تثبت التوافق معهم منهجياً وعقدياً ، وذلك حرصاً منهم على إثبات مذاهبهم وإحقاق مناهجهم .

فهم جميعاً يحاولون جاهدين اعتبار القرآن الكريم والسنة أصلاً لمذاهبهم ، بل إن

معظم الفرق قد أعلنت صراحة أن الرسول ﷺ هو إمامهم دون غيرهم ، وأنهم متبعون لا مبتدعون .

فهو عند الصوفية الصوفي الأول في الإسلام ، وكذلك يجعل المعتزلة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة على رأس طبقاتهم . والأشاعرة يسمون أنفسهم أهل السنة والجماعة ، كما يسمون أنفسهم الخلف بإعتبار أنهم الذين خلفوا السلف في اعتقاداتهم .

أما الفلاسفة فيزعمون أنهم الفئة الوحيدة القادرة على فهم القرآن والسنة ومعرفة الحكمة الإلهية معرفة يعجز عن إدراكها أصحاب المناهج الأخرى .

أما القدرية ، فقد رفضوا أن يطلق عليهم هذا الإسم حيث ورد (القدرية مجوس هذه الأمة) فقالوا إن اسم القدرية يجب أن يكون علماً على الذين يحتجون عن معاصيهم بالقدر لا الذين يرفضون الإحتجاج به وينكرونه . ومن ثم فقد أطلق الإسم أيضاً على الجبريين . ويزعم القديرون أنهم على منهج الصحابة والتابعين لأنهم لم يحتجوا بالقدر .

وكذلك نجد المعتزلة قد اضطروا إلى قبول الإسم بعد شيوعه ، ولكنهم أولوا التسمية حتى لا يصبحوا معتزلين بمن قبل الأمة أو الجماعة ، فسموا أنفسهم معتزلة (بكسر الزاي) بينما يسميهم خصومهم معتزلة

(بفتح الزاي) وزعموا أنهم اعتزلوا الباطل والمعاصي والإنحرافات العقيدية التي تفتشت بين الفرق الأخرى بعد جيل السلف .

وهكذا نرى أنه بينما كانت الحرب سجلاً بين معظم الفرق بهدف الإنتساب إلى السلف أو إدعاء كل فرقة أنها تمثل أهل السنة والجماعة ، نجد محاولة تتصل بعض الفرق من الأسماء التي شاعت عليها ، والتي تدل على خروجهم عن أهل السنة والجماعة ومنهج السلف .

ومن ثم يبدو أن تحديد مفهوم للسلف أمر صعب حيث لم تتفق عليه الفرق ، وحيث حاولت كل فرقة منهم أن تكون هي صاحبة الاسم دون غيرها لتصبح هي الفرقة الناجية من النار إستناداً إلى حديث الرسول ﷺ .

والمشاكل الفكرية التي نجمت عن ظهور الفرق والتي كانت موضوعاً بينهم للنزاع (مشكلة الإمامة — مرتكب الكبيرة — القضاء والقدر — فهم آيات صفات الله تعالى — خلق القرآن — رؤية الله عز وجل في الآخرة .. وغير ذلك من المسائل المثارة) لم تبحث كما هو معروف في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد الصحابة فكراً ، ذلك ترف عقلي ، وعمل فكري نظري ليس من ورائه فائدة عملية ترجى للأمة الإسلامية ، بل إن أثره مدمر لوحدة الأمة الإسلامية وقوتها ، ولصالح البشرية عموماً ،

وقد أغنى عنه جهاد الرسول ﷺ والصحابة لبناء المجتمع الإسلامي في العهد النبوي ، هذا الجهاد العظيم الذي كانت نتيجته تحقيق السعادة والعدالة والخير العميم للعرب وللمسلمين في واقع الحياة البشرية .

كما أغنى عنه أيضاً توجيه الجهود في عهد الخلفاء الراشدين لنشر النور والعدل والخير العميم بين سائر الشعوب الأخرى .

ولكن إذا كان من المسلم به من كل الفرق والاتجاهات أن منهج الرسول ﷺ في فهم حقائق القرآن وسوره وآياته والتعامل معه بتطبيق أحكامه ومعرفة مفاهيمه وحقائقه الربانية هو المنهج الصحيح ، فلاشك أن الفرقة الفكرية التي التزمت هذا المنهج بكل دقة وأمانة ، وتعاملت مع القرآن الكريم والسنة الصحيحة كتعامل الصحابة معهما دراسة وتطبيقاً ، لاشك أن هذه الفرقة ، هي الأجدر بالتسمية والإنتساب إلى السلف وهي الأحق بالتفرد بالنجاة دون سواها .

كما يمكن القول أيضاً أن أية فرقة سواها أو أي مذهب أو أي اتجاه أو منهج فكري إنما يقرب من الحقيقة الإسلامية أو يبعد بمدى قربه أو بعده عن المصدر الصحيح والمنهج الصريح ، فيصيب بقدر قربه منه ويخطئ بقدر بعده عنه ، ذلك هو المقياس الإسلامي الحق .

الإسلامية المختلفة كالتنافس بين الفرس والعرب وغيرهم ، مما كان له الأثر الواضح في سير الأحداث التاريخية للأمة الإسلامية بعامة ، كما كان للثقافات والحضارات والأديان التي هزمها وغزاها الإسلام والمسلمون تأثير واضح في نشوء الفرق .

كما يعلل البعض نشوء الفرق بطبيعة الفكر البشري التي من شأنها أن تلج بحثاً عن إجابات مرضية للنفس البشرية في مسائل الاعتقاد مما يكون من شأنه البحث الفكري والإختلاف ، ويدلل على هذا بحدوث هذه الفرق في الأمم الأخرى .

ويحاول آخرون من المستشرقين تصوير نشوء الفرق الكلامية والفلسفية في الإسلام بمظهر الثراء الفكري والتراث الغني الذي يجب أن تفتخر به الأمة الإسلامية . فيصرحون بأن نتاج الفرق الفكري هو مظهر الإبداع الفكري والفلسفي عند المسلمين ، وقد يظهر بعضهم منكراً أن في علم الكلام وتراث الفرق أدنى إبداع فكري أو فلسفي حتى يتحمس بعض أبناء الإسلام للرد عليه وإثبات عظمة التراث الفكري للفرق وللمتكلمين كإبداع حضاري للعرب والمسلمين ، فيتحقق بذلك هدف هؤلاء المستشرقين الخبيث ، وهو تناول الدارسين من أبناء الإسلام في العصر الحديث لهذا القسم من التراث الإسلامي على أنه مفخرة يجب أن نبرزه ونحرص عليه ونزده ونعيش عليه

ومن ثم يمكن القول أن السلفيين أو أهل السنة والجماعة في الفكر الإسلامي هم الصحابة ثم التابعون ثم تابعو التابعين ثم المحدثون الذين جعلوا مهمهم التحقق من صحة الأحاديث ثم الفقهاء وهؤلاء جميعاً هم الذين وقفوا في وجه سائر الفرق الأخرى متهمين إياهم بالابتداع مقتصرين على الإلتباع .

٣ - التعليل التاريخي لنشوء الفرق في العالم الإسلامي :

سلك المعلقون لنشوء الفرق في الإسلام مسالك شتى ، ونهجوا مناهج مختلفة ، كل حسب مذهبه وإتجاهه . فتمة إتجاه يرجع هذا الحدث التاريخي الخطير في حياة الأمة الإسلامية إلى النزاعات السياسية التي نجمت بين المسلمين في الصدر الأول ، والتي بدأت بالنزاع بين الإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، حيث انتهى هذا الخلاف بين الفريقين إلى ظهور فرقتي الخوارج والشيعنة كفرقتين سياسيتين ، ثم تلا هذا خلاف حول بعض الأمور الاعتقادية والمسائل الإيمانية ، في محاولة من مفكري الفرقتين تبرير أفكارهما وعقائدهما التي خالفوا بها الأمة الإسلامية .

وتمة إتجاه آخر يعلل نشوء الفرق بالعصبية القبلية أو التنافس بين بني هاشم وبني أمية ثم بالعصبية القومية بين القوميات

باعتباره إسهاماً من المسلمين في إنماء الحضارة الإنسانية بعامه .

من هؤلاء المستشرقين الخبثاء المستشرق اليهودي إرنست رينان الذي يتهم العقلية العربية بالعجز عن إنتاج هذا التراث الذي يراه البعض إنجازاً عظيماً من إنجازات الأمة الإسلامية ، ويرد هذا اليهودي علم الكلام وفكر الفرق بطريقة أو بأخرى إلى اليهودية وإلى المسيحية وإلى الفلسفة اليونانية ، بحجة أن العرب لا يملكون العقلية الفلسفية القادرة على إنتاج مثل علم الكلام ، ومن ثم يعلل نشوء الفرق وخاصة الكلامية منها بتأثير خارجي من الأمم السابقة ، مما يدفع كثيراً من المسلمين للرد عليه لإثبات الأصالة وبهذا يغفلون عن القضية الأساسية وهي أن علم الكلام والفرق كان إنحرافاً عن عقيدة السلف .

وأخيراً نجد محاولات من بعض الذين يؤمنون بالمادية الجدلية كتفسير للتاريخ ، لتعليل نشوء الفرق في الإسلام بالعامل الإقتصادي واعتبار العوامل الأخرى جانبية أو ثانوية ، فيفسرون مقتل عثمان باعتباره ثورة برولتيارية على الحكم الرأسمالي ، كما يفسرون الخلاف بين الإمام علي ومعاوية رضي الله عنهما بأنه كان صراعاً طبقياً بين الفقراء والأغنياء . ومن ثم يصغون الفرق بالصيغة الطبقية ، ويفسرون ظهور الفرق بالصراع بين الطبقات .

٤ - الموضوعية في تفسير التاريخ :

وقبل أن نلمح هذه الاتجاهات لنرى أوجه الصواب والخطأ في كل منها ، تمهيداً لإثبات الأسباب الحقيقية لنشأة الفرق يجب أن نوضح حقيقة هامة من حقائق تدوين التاريخ وتعليله وهي أنه : « قد يقوم الباحث ببحثه وهو مشبع بفكرة معينة من موضوع ما أو من اتجاه ما في النواحي السياسية أو الإقتصادية أو العسكرية أو الدينية ، وتسيطر عليه الفكرة سيطرة كاملة فإذا هو يدرس ويكتب تحت تأثيرها ، فخرج بحثه ترجمة لهواه الشخصي ، وليس ترجمة لما جاء في النصوص والأصول والآثار ، لأنه يرفض تلقائياً كل ما يتعارض مع الفكرة التي تسلطت عليه ، والنتيجة أن الباحث قد يظن أنه يضع تفسيراً جديداً للنصوص أو للأصول بينما هو في الحقيقة يخضعها لفكرته الخاصة »^(١) فتفسير التاريخ من خلال فكرة معينة مسبقه تفسير خاطئ يتنافى مع المنهج العلمي الصحيح القائم على الموضوعية ، لكن إنطلاق التفسير التاريخي من عقيدة خاصة أمر لابد منه ، إذ أنه يستحيل أن يوجد مفكر أو مؤرخ إلا ويعتقد بعقيدة ما ، حتى ولو كانت مادية ، ولذلك نقول أن تحقيق الموضوعية بالمعنى المطلق في العلوم الإنسانية ومنها التاريخ أمر مستحيل ، ولكنه ممكن جزئياً ونسبياً .

كما نجد هذه القاعدة المنهجية لباحث أمريكي يستعرض في كتابه (التاريخ وكيف

يفسرونه) مناهج وأساليب المؤرخين وفلاسفة التاريخ في معالجة الأحداث التاريخية وتعليلها، قديماً وحديثاً، وانتهى إلى أن التعليل بعامل واحد أو بعاملين فقط، وهو منهج المؤرخين قديماً وحتى القرن الماضي، قد أصبح مرفوضاً من أكثر المؤرخين وفلاسفة التاريخ، حيث أتجهوا إلى المنهج التوليفي في تفسير التاريخ، وهو يقوم على تعليل الحادثة التاريخية بالنظر إلى كل العوامل الثقافية والحضارية والروحية والمادية التي تحكم الأحداث التاريخية، دون تخصيص عامل واحد منها أو إبرازه على سائر العوامل، وكذلك دون إهمال عامل منها مهما كان ثانوياً أو غير مباشر.

ويعتبر عمل المؤرخ الرئيسي هو تعليل أحداث التاريخ بعد جمع وقائعه وتسجيل أحداثه، وبالرغم من إختلاف فلاسفة التاريخ حول مفهوم التعليل التاريخي ومناهجه، إلا أن الرأي السائد حديثاً بينهم حول تعليل الحادثة التاريخية يدور حول استبعاد تصور سابق بعينه، كعلة وحيدة لحادث معين بمعنى أنه يصعب — إن لم يكن يستحيل — تحديد حدث واحد سابق كعلة واحدة لحدث لاحق.

فالحدث الواحد له سوابق عديدة من الأحداث التاريخية التي يمكن إعتبارها جميعاً عللاً حقيقية لوقوع ذلك الحدث. وإن كانت هذه العلل تختلف من حيث كون

بعضها أسباباً رئيسية، والأخرى أسباباً مباشرة، والثالثة تدخل تحت ما يمكن تسميته بالفرص المواتية، أو بالعوامل المساعدة، والرابعة يمكن تسميتها بالأسباب البعيدة أو جنور الحوادث.

ومثال ذلك نشوب الحرب العالمية الأولى بسبب رصاصة قتلت أرشيدوق النمسا عام ١٩١٤ م، حيث من الخطأ القول أن مقتل إنسان ما مهما كان شأنه ومكانه يسبب حرباً عالمية. ولأن تحليل المؤرخين للأحداث التاريخية والأوضاع السياسية والنظم والمعاملات الاقتصادية والدولية في العالم إبان نشوب هذه الحرب، كل هذا يؤكد وجود جنور عميقة لها وأسباب حقيقية أدت إلى نشوبها، تكمن في النظام والأوضاع والأحوال والعلاقات والصراعات السياسية والقومية والاقتصادية، وكلها تجعل المؤرخ على يقين بأن الحرب كانت ستنتشب حتماً، إن لم يكن بسبب مقتل الأرشيدوق كعلة مباشرة، فستكون بسبب مباشر آخر.

وإذا كان لابد أن نأخذ بهذا المنهج حتى يكون تعليلنا لنشوء الفرق في تاريخ الإسلام علمياً وموضوعياً، وإذا كان لابد لمفسر التاريخ أن ينطلق من وجهة نظر معينة وبحسب أصول اعتقادية خاصة، فإنه من الأولى أن يكون تفسير تاريخ الإسلام لها جميعاً.

ومن ثم وبناء على هذا وذلك يجب علينا أن نضع في إعتبارنا الحقائق الإنسانية والمبادئ الإسلامية الآتية :

أ - وحدة الأمة الإسلامية :

الإسلام - وهو آخر الرسالات الإلهية إلى الناس - شأنه كشأن الرسالات الإلهية الصحيحة التي سبقته من لدن آدم ونوح حتى موسى وعيسى عليهم جميعاً وعلى خاتمهم الصلاة والسلام ، أنزله الله سبحانه وتعالى لإقامة المجتمع الإسلامي الذي تقوم نظمته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والخلقية على عقيدة التوحيد .

ومن ثم يصبح هذا المجتمع - بمجرد قيامه - سواء قام في حجم القرية - كمجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة مباشرة - أم كان في حجم الدولة التي كادت مساحتها تغطي شبه الجزيرة العربية في آخر العهد النبوي ، أم في حجم الدولة العالمية ، كما كان الحال في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومن جاء بعده حتى عصر الخلافة العثمانية ... نقول يصبح هذا المجتمع هو الأمة الإسلامية سواء كان جنيناً أم وليداً ، صغيراً أم عملاقاً ، فالأمة الإسلامية أمة واحدة ، والمسلمون على اختلاف أجناسهم وقومياتهم وألوانهم وأوطانهم - إخوة يكتونون أمة واحدة .

يخبرنا ربنا عز وجل عن هذه الحقيقة الهامة في حياة المسلمين بقوله سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ٩٢/الأنبياء . وقال تعالى أيضاً ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ٥٢/المؤمنون .

فربط سبحانه وتعالى بين وحدة الأمة وتوحيد الربوبية وإفراد الله بالعبادة لما بينهما من علاقة وطيدة ورباط وثيق ، حيث تنبثق وحدة الأمة من التوحيد وتقوم عليه .

فوحدة الأمة الإسلامية مبدأ هام من مبادئ الإسلام الأساسية ، وضياح هذه الوحدة أو تفتيتها والعمل على نقضها وتقسيم الأمة الإسلامية إنما هو نقض لأهم مبادئ الإسلام ، وحرب على المجتمع الإسلامي وهدم لبنائه الاجتماعي ودليل على فساد العقيدة ، ومخالفة صريحة للتوحيد .

ولذلك نصت الشريعة الإسلامية على قتل الخارج على الجماعة الإسلامية ، الساعي لتفتيت وحدتها .

ب - واحدة الأمة الإسلامية :

كذلك تثبت الآية الكريمة السابقة واحدة الأمة كما تثبت وحدتها ، فالوحدة تعني وجوب المحافظة على وحدة الأمة الإسلامية في ذاتها فلا يجوز أن تنقسم أو تتصارع فيما بينها . أما الواحدة فتعني أنها أمة واحدة لا تتعدد في مواجهة أمة الباطل المتعددة .

وأساس الواحدة يكمن في أنها أمة الحق ، والحق واحد لا يتعدد ، لأن الحق في

كل قضية واحد بينا الباطل في القضية الواحدة كثير ومتعدد قال تعالى ﴿لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ، فَأَيُّ تَصْرُفُونَ ﴿٣٢﴾ يونس .

ومن ثم كان الصراط المستقيم واحداً بينا السبل متعددة ومختلفة ومعوجة ، وكلها تتصف بالباطل والضلال .

والإنسان حين يتبع الحق لا يجد أمامه إلا سبيلاً واحداً هو الصراط المستقيم . بينا يجد حين ينحرف عن الحق ويتغنى الباطل العديد من الطرق والسبل والمناهج والأديان .

وهذا المبدأ هام في قضية الصراع بين الإسلام وبين ما سواه من الأديان والمناهج في الأرض حيث أنها جميعاً يمكن أن تتحد مع بعضها أو يتحد بعضها مع بعض ضد الإسلام وأهله ، ولكن مبدأ الواحدة الذي يعني أن المسلمين هم وحدهم أهل الحق وعلى الحق يستلزم عدم جواز إتحادهم مع أي أمة من أمم الباطل في الصراع بين الحق والباطل .

ج - الصراع بين الأمة الإسلامية (أمة الحق) وسائر الأمم الأخرى (أهل الباطل) :

العلاقة بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم غير الإسلامية علاقة صراع وحرب دائمة دائمة لا تفر ولا تلين ولا تتوقف ، وذلك منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة . لأنه

في الحقيقة صراع بين الحق والباطل : بين الحق متمثل في حزب الله عز وجل أي في الأمة الإسلامية ، والباطل متمثل في حزب الشيطان ، أي كل ما سوى أمة الإسلام من الأمم الأخرى .

وهذا الصراع يأخذ جميع أشكال الحروب والصراعات والمنافسات التي يمكن أن تقوم بين الناس في الأرض : الفكرية والإعتقادية والإعلامية والأدبية والنفسية والإقتصادية والسياسية والعسكرية .

وقد شاء الله أن يختلف الناس إلى حزبين : حزب الله عز وجل وحزب الشيطان ، وقد شاء الله عز وجل أيضاً أن يتصارع الحزبان حتى قيام الساعة قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَخَلْقُهُمْ﴾ ١١٨ - ١١٩ هود .

وهكذا بين الله عز وجل أن هذا الصراع الذي فرق الناس إلى أمم هو الحكمة القريبة التي من أجلها خلق الله الخلق فقال ﴿وَلَئِنَّكَ لَخَلْقُهُمْ﴾ أما الحكمة النهائية التي من أجلها شاء الله هذا الصراع فهي ما يخبرنا عنه ربنا عز وجل بقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ٧ هود .

فهذا الصراع ليس مراداً لذاته ، ولكن شاءه الله تعالى لكي يتبلى العباد ويستبين موقف كل منهم من الحق ويتحدد مكانه من الصراع ودوره في النزاع فيميز الخبيث من الطيب ، ويستبين المؤمن من الكافر ومن المنافق ومن ثم تقوم الحجة على كل إنسان ويتحدد مصيره الأخروي ، لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان للناس . وهذا الابتلاء إنما يتمثل أعظم ما يتمثل ويتحقق أجلى ما يتحقق في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل بجميع أشكاله وصوره بعامه ، وفي الصراع العسكري أو الحروب بخاصة قال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ . وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ٣ - ٤ / محمد .

د - ثبات السنن التاريخية :

والحقيقة الثالثة التي نود الإشارة إليها هنا هي أنه — كما أن القوانين والنواميس والسنن التي يسير عليها الكون المخلوق ثابتة ودائمة مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله تعالى— فإن الله سبحانه شاء أيضاً أن تكون

السنن التي تحكم وتوجه وتضبط سير الأحداث البشرية ، والنواميس التي يسير بحسبها التاريخ البشري أيضاً ثابتة فنفى الله سبحانه عنها التغير والتبدل بقوله تعالى ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ٤٣ / فاطر .

وقال تعالى أيضاً ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ٦٢ / الأحزاب . ومعنى هذا أن التغير الذي يصيب الناس في أحوالهم خلال أعمارهم كأفراد أو كمجتمعات أو كأمم إنما هو محكوم بسنن ثابتة ، وليس تغييراً خاضعاً للصدفة وللعشوائية ، وحاشا لله أن يكون في الكون مكان أو مجال للصدفة أو العشوائية .

ومن ثم إذا واجه العقل البشري مشكلات فكرية معينة بدون الإسترشاد بالوحي فإنه يسلك حيالها سبلاً محددة ، أو مناهج رئيسية هي هي بعينها التي يسلكها في أية حضارة أو أي زمان أو أية بيئة .

وكذلك إذا حاول الناس أن يبحثوا في مشكلات وقضايا محددة يثيرونها حول آيات من كتابهم السماوي المنزل فإنهم يسلكون أيضاً مناهج محددة وسبلاً هي هي التي يسلكها أهل الكتب من قبلهم .

قال رسول الله ﷺ « لتبتعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ، قلنا :

يارسول الله ؛ اليهود والنصارى ؟ قال :
فمن ؟ » أخرجه البخاري ومسلم^(٣) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال
« لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ
القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قيل
له : يارسول الله ، كفارس والروم ؟ قال :
مَنْ مِنْ النَّاسِ إِلَّا أَوَّلُكَ » أخرجه
البخاري^(٤) .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ « لما خرج إلى غزوة حنين
مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها
أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فقالوا :
يارسول الله ، أجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم
ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ :
سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى :
أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي
بيده : لتركبن سنن من كان قبلكم »
أخرجه الترمذي^(٥) .

ومن ثم فإن اختلاف الناس إلى أم وملل
ونحل متصارعة ، أمة واحدة منهم على
الحق والباقي على الباطل ، من السنن الجارية
في تاريخ البشرية .

وكذلك إختلاف أمة الحق وتفرقها إلى
فرق ، فرقة واحدة منها على الحق والباقي
على البدع والبعد عن الحق بدرجات
متفاوتة ، هو أيضاً من السنن الجارية في
تاريخ البشرية بالنسبة لأهل الكتب
السمائية . فكما تفرقت اليهود بعد أن
جاءتهم البينة من ربهم تفرقت أيضاً

النصارى ، وكذلك حدث بالنسبة
للمسلمين ، كما أخبر بذلك الصادق
المصدوق ﷺ ، بقوله فيما يرويه معاوية ابن
أبي سفيان رضي الله عنه ، قال : قام فينا
رسول الله ﷺ فقال « ألا إن من كان
قبلكم من أهل الكتاب إفتروا على ثنتين
وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على
ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار ،
وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » زاد في
رواية « وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى
بهم الأهواء ، كما يتجارى الكلبُ بصاحبه ،
لا يبقَى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »
أخرجه أبو داود^(٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ قال « تفرقت اليهود على إحدى
وسبعين فرقة ، أو اثنتين وسبعين ،
والنصارى مثل ذلك ، وستفترق أمتي على
ثلاث وسبعين فرقة » أخرجه الترمذي^(٧) .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي
الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ
« ليأتين على أمتي ما أتى بني إسرائيل
حنو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من
أتى أمه علانية ، ليكونن في أمتي من يصنع
ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين
وسبعين ملة ، وستفترق أمتي على ثلاث
وسبعين ملة ، كلها في النار إلا ملة
واحدة ، قالوا : من هي يارسول الله ؟
قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي »
أخرجه الترمذي^(٨) .

هـ - صراع العقائد أو الحرب الفكرية :

يمكن القول - بناء على ما تقدم ، وبناء على حقيقة الصراع - أن الصراع بين أمة الإسلام وأمم الباطل يكاد يأخذ نفس الخطوط العريضة في سبيل سواء كان ذلك بين أمة الإسلام بقيادة سيدنا نوح ، أم بقيادة سيدنا موسى ، أم بقيادة سيدنا محمد ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، أم بقيادة الصالحين من عباد الله المجاهدين حتى يوم القيامة .

وسواء قاد أُمّ الشرك فرعون وهامان ، أم أبو جهل وأمية بن خلف ، أم غيرهم ، فإنّ مناج أهل الحق في الصراع واحد وثابت لأنّه مناج إلهي لا يجوز عليه التبديل والابتداع . أما أهل الباطل فهم على مناهج وأديان وأهداف مختلفة ، إلا أنها جميعاً - وبدون إستثناء - أهداف دنيوية محضة . كما أنهم يتحلون في حربهم ضد المسلمين بالرغم من أن بأسهم بينهم شديد .

كما علمنا أن حقيقة الصراع بين الناس في الأرض صراع بين الأديان ، وتعبير آخر نقول : إن العامل الرئيسي وراء سير الأحداث التاريخية وتوجيهها هو الصراع بين الأديان ، بينما أنواع الصراعات والحروب الأخرى : القومية والإقتصادية والسياسية والإعلامية والنفسية والعسكرية وغيرها هي صراعات فرعية بالقياس إلى صراع الأديان . ولا يقدح في هذا القول إخفاء - أو

بتعبير أدق إخفاء - هذا العامل الرئيسي كأساس في الصراع في بعض الأحيان ، وراء عوامل قومية أو إقتصادية أو غيرها ، حيث كثيراً ما يلجأ أهل الباطل والأديان الباطلة إلى التستر وراء عوامل فرعية تثبيطاً لهم المسلمين في حربهم ضدهم .

ومن ثمّ يعتبر الصراع العقدي (الفكري أو الأيديولوجي) على رأس قائمة الصراعات من حيث أن أهم ما في الدين هو العقيدة ، ولذلك يعتبر الهدف الأول والرئيسي للمتحاربين في حلبة الصراع الحضاري الذي أساسه صراع العقائد هو أن يهدم كل منهم عقيدة الآخر وأصوله الدينية ويشكك فيها . حتى يمكن القول أن الحرب الدينية العقائدية أو الفكرية هي أخطر أنواع الحروب أثراً . لأنّ المنهزمين فيها لا تقوم لهم قائمة كأمة واحدة بعد الهزيمة ، فهي هزيمة نهائية ، ولا يحدث هذا في المعارك الإقتصادية والسياسية ولا حتى العسكرية .

وأهل الباطل والزيف ، في حربهم ضد الإسلام وأهله ، يتوجهون مباشرة إلى أصلي الإسلام المنزلين من الله عز وجل : القرآن والسنة لتحريفهما بالمعنى بعد أن يسوا وعجزوا عن تحريف الوحي بالنص وباللفظ . وذلك بُغية تحريف عقيدة المسلمين التي ترك الرسول ﷺ صحابته عليها ، وبُغية إدخال البدع على عبادة المسلمين وعلى شريعتهم ونظمهم ، تلك التي ترك الرسول ﷺ صحابته عليها .

ولقد أخبر الله عز وجل رسوله ﷺ وأخبرنا بما سيكون من شأن أعداء الإسلام حيال القرآن والسنة ، فقال عز من قائل ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ٦٨/المائدة .

وهو إخبار من الله لرسوله ﷺ بما سيكون من محاولات الكافرين من يهود ونصارى لتغيير وتحريف وزيادة الوحي ، وهو ما يبدو واضحاً فيما دسّوه على السنة من الأتزال الهائلة من الأحاديث الموضوعة والمكذوبة على رسول الله ﷺ ، ومتمثلاً بوضوح كذلك فيما دخل على تفسير القرآن الكريم من تأويلات رمزية وباطنية ، وإسرائيليات وتحريفات لمعاني الآيات القرآنية .

فتحريف النصوص النبوية ووضعها ونسبتها كذباً إلى الرسول ﷺ كان أحد الأسلحة الرئيسية التي إستخدمها الكافرون في حربهم الفكرية والعقدية ضد أمة الإسلام .

والسلاح الرئيسي الثاني هو إثارة الفتن الفكرية وافتعال المشكلات العقدية لإثارة مسائل وقضايا دون الوصول إلى حلول حاسمة لها ، بقصد غرس حالة من اللبلة والشك في نفوس المسلمين ، وإظهار

عقيدتهم أمام أبنائهم وأمام غيرهم بمظهر العقائد الباطلة الأخرى ، المليقة بالخلافات والنزاعات والمشاكل التي ليس لها حلول ، وكل هذا من شأنه أن يمنع المد الإسلامي من الانتشار بين سائر الشعوب والأمم .

ومن هذه المسائل التي أثارها أهل الزيغ : حقيقة الإيمان — القضاء والقدر — والجبر والاختيار — فهم آيات صفات الله عز وجل — الإمامة .. الخ فعندما يتوقف أهل الزيغ عند آيات صفات الله عز وجل ومحاولين معرفة الصفة على حقيقتها فإن هذا يؤدي بالضرورة إلى سبيلين للزيغ والكفر والضلال ، حيث ينتهون إما إلى تعطيل الصفات وإنكارها ونفيها ، وإما إلى التشبيه والتجسيم .

وعندما يتوقفون عند قضية الجبر والاختيار والقضاء والقدر ، فإنهم لابد سيبتون كما انتهى الذين من قبلهم ، إما إلى القول بالجبرية المحضة ، وإما إلى إنكار القدر ، وهذا ما حدث بالنسبة للأمم السابقة . قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ٣٥/النحل .

فمثل هذه القضايا التي يثيرها أهل الزيغ ودعاة الفتن حول الآيات المتشابهة عادة ما يؤدي التوقف عندها والبحث فيها إلى تكون

الفرق وانقسام الأمة باختلافها حول المسائل الإعتقادية .

وقد نبهنا ربنا عز وجل إلى المزالق التي هوى فيها فئات من الأمم السابقة (اليهود والنصارى) بسبب إختلافهم حول كتابهم ، وأن المسلمين معرضون لوقوع أهل الزيغ منهم في نفس المزالق . قال تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَتَاثُ ﴾ ١٣/البقرة .

وبين الله سبحانه وتعالى أن البغي واتباع الهوى هو أصل الاختلاف وعلة النفسية الأولى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِيتُهُمْ ﴾ ٢١٣/البقرة .

وقال تعالى أيضاً ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ١٧٦/البقرة .

وقال تعالى أيضاً عن أهل التوراة وإختلافهم فيها ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأُخْتَلِفَ فِيهِ ﴾ ١١٠/هود .

ومن ثم فاختلاف أهل التوراة وأهل الإنجيل في كتبهم كظاهرة تاريخية حدثت في تاريخ أهل الكتب السماوية تستتبع — حسب ثبات السنن التاريخية ، وبحسب خبر الرسول ﷺ عن أمته بالاختلاف والافتراق وإتباع سنن السابقين — نقول إن هذا كله يستتبع إختلاف بعض المسلمين الذين في قلوبهم زيغ ويتبعون أهواءهم حول القرآن

الكريم والسنة ، ومن ثم تحدث الفرق بينهم وتتكون الفرق .

قال تعالى موضحاً منهم أهل الزيغ في فهم آيات القرآن الكريم ومبيناً منهم الراسخين في العلم المعتدين برسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم جميعاً :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ٧/آل عمران .

فليس ثمة مشكلة على الإطلاق بالنسبة للمسلمين المؤمنين لتسليمهم بأن القرآن كلام الله تعالى ولتوقفهم عند حدود الاستطاعة البشرية في فهم آيات الصفات بخاصة والآيات المتشابهات بعامة . فيبتغوا الله عز وجل ما أثبتته لنفسه دون الخوض في كيفية الصفة والسؤال عن حقيقتها .

أما أصحاب القلوب المريضة الزائغة وهم الذين إنساقوا وراء أهوائهم ، بغياً منهم ، وابتغاء الفتنة ، فهم يتتبعون التشابه من الآيات ، ويتوقفون عندها ، ويسألون عن تأويلها ، وعن حقيقة الخبر وكيفية الصفة ، مع العلم أن النتيجة الحتمية لمثل هذا المنهج الضال هي :

أ — العجز المطلق عن الوصول إلى الإجابة المطلوبة .

ب — التفرق الحتمي كنتيجة لازمة لهذا المنهج الضال .

وهذا هو المطلوب لهم تعميماً وترسيخاً للفتنة والفرقة بين المسلمين .

ولذلك وضع لنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود بعد إختلافهم في كتابهم أصبحوا في شقاق بعيد أي فرقة لا ألتقاء بعدها .

كما وضع لنا أن الإختلاف الذي أدى بهم إلى الشقاق البعيد ، وتكوّن الفرق الاثنتين والسبعين ، إنما كان بسبب عامل نفسي هو البغي ، أي إختيار بعض الناس الدنيا ومناهج الفسق والكفر إلتباعاً للهوى والشهوات ، وإثارةً للدنيا على الآخرة وهذا هو الذي حدث بسببه تفرق المسلمين ، ومن ثم يمكن تعليل نشوء الفرق في الإسلام أولاً بهذا السبب ، كعامل رئيسي ، ومركز في الحكمة من خلق الدنيا ، ومركز في طبيعة الناس وسنن الحياة ، التي تؤدي جميعها إلى الحكمة ، التي من أجلها خلق الله تعالى السموات والأرض والإنسان ، ألا وهي الإبتلاء .

٦ — العوامل الرئيسية لنشوء الفرق في تاريخ المسلمين :

يمكن القول بأن العوامل الرئيسية هي : أولاً : الإبتلاء ، وتعدد الأديان ، وإختلاف الناس إلى فرق : لقد خلق الله عز وجل

الدنيا والإنس والجن للإبتلاء ، وحقيقة الإبتلاء تتضمن بالضرورة الحقائق التالية :

أ — خلق الله عز وجل الإنسان تحقيقاً للإبتلاء — ذا إرادة حرة مختارة ، ويزاول إختياره فيما كلف به ، أي الإختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الهدى والضلال .

ب — النتيجة الحتمية لمزاولة الإنسان للإختيار الصحيح ، واللازمة الضرورية لتحقيق ظروف وأحوال وملايسات الإبتلاء الصحيح ، هي أن يختار بعض الناس الحق ، ويختار البعض الآخر الباطل ، وأن يفعل البعض الخير والحلال ، ويفعل البعض الآخر الشر والحرام .

أي أنه — نتيجة للإختيار الصحيح — لابد من أن يصبح الناس فريقين ، فريقاً على الحق — وفريقاً أو فرقاً على الباطل ، أي أنه لابد أن يصبح الناس أمماً .

ومعنى هذا أن الإختلاف قائم وسيظل بين الناس ، وأن الأُمّة مستمرة إلى يوم القيامة . كلهم — إلا واحدة — مختلفون عن الحق . أما أمة الحق فهي لم تختلف عن الحق لأنها تمسكت به .

قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِذَا خُلِقَهُمُ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ١١٨ — ١١٩ / هود .

ومعنى قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أنه لم يشأ أن يكون الناس كلهم على الهدى ، كما أنه لم يشأ أن يكون الناس كلهم على الضلال ، وإنما شاء الله تعالى أن يكون الإنسان مختاراً بين الهدى والضلال مما كان نتيجته أن جعل البعض يختار الهدى والبعض يختار الضلال ، فاختلّفوا إلى أُم ، فالاختلاف أمر حتمي نتيجة حرية الاختيار . وسيستمر إلى يوم القيامة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ .

ثانياً : البغي وإيثار الدنيا عامل رئيسي من عوامل تكوّن الفرق :

إختيار الذين في قلوبهم زيغ سبيل الهوى وإيثارهم للدنيا دفعهم إلى تتبّع المتشابه من آيات القرآن الكريم ، فأدّى هذا إلى الإختلاف فيه ، ومن ثم أدّى هذا إلى إثارة الشبهات ، ومن ثم تكونت الفرق ، وغالباً ما يكون زعماء الفرق ورؤوسهم من أهل الزيغ ، وهذا لا يمنع وجود بعض الأتباع من المخدوعين المقتونين الذين ضلّهم أهل الزيغ .

ثالثاً : تكوّن الفرق الكلامية إنحراف أصاب عقيدة بعض المسلمين :

ومن ثم لم يكن نشوء الفرق في الإسلام حدثاً إسلامياً خالصاً ، وليس مفخرة من مفاخر المسلمين ، وليس الإنتاج الفكري للفرق والمدارس الكلامية إسهاماً من العقلية العربية والإسلامية في عملية إثراء الفكر

البشري ، بقدر ما هو إنحراف عن طريق الهدى وحجب للنور الإلهي الخالص ، الذي يحتاج إليه الناس ، فهو شر أصاب الأمة الإسلامية ، وانحراف عن الطريق المستقيم سلكته الفرق المتنازعة والإتجاهات المختلفة ، مما كان له أثره الواضح على وحدة الأمة الإسلامية وقوتها ، وانتشار نور الله تعالى في الأرض . وهكذا يجب أن ينظر إلى فكر الفرق وآراء علماء الكلام .

رابعاً : كل الفرق ضالة إلا واحدة :

إن كل الفرق التي نشأت في تاريخ المسلمين ضالة إلا واحدة ، لأن الحق واحد وأهل الحق جماعة واحدة . والصراط المستقيم واحد لا يتعدد والسالكون إياه جماعة واحدة لا تتفرق ولا تتحزب ، والخارج عليهم ضال ملتحق بالفرق الضالة .

قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَالْبُغْوَ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ١٥٣/ الأنعام . ومع التحذير يبين لنا عز وجل كيف نتقي وننجو من الوقوع في التفرق واتباع السبل ، وهو التزام الصراط المستقيم ، أي الكتاب والسنة بالمنهج الصحيح الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم جميعاً .

خامساً : الحكم على الفرق الإثنتين والسبعين :

يمكن القول أن السبل هي مناهج الفرق

الاثنين والسبعين ، التي اتبعتها وفقات ضالة من اليهود وفقات ضالة من النصارى وفقات ضالة أخرى من المسلمين .

يبد أن هنا خلافاً حول فرق المسلمين : هل كفروا وخرجوا عن الملة إذا كانوا قد سلكوا نفس السبل التي سلكها اليهود والنصارى الذين هم مشركون كافرون بلا ريب ؟

ولعل الرأي الأرجح أن فرق المسلمين الإثنين والسبعين ليسوا كفاراً لقول رسول الله ﷺ « ... وتفرقت أمتي ... » وفي هذا دلالة على أن هذه الفرق من أمة عليه الصلاة والسلام أي لم يكفروا ولم يخرجوا عن الملة وإن ضلوا .

ولمّا يكون التشابه بينهم وبين اليهود والنصارى في الاختلاف في الكتاب ، والتفرق ، وفي عدد الفرق ، وفي السبل والمناهج التي أدت إلى هذه الفرقة ، ويكون بقاء فرق الإسلام الإثنين والسبعين داخل دائرة الإسلام ، بسبب حدوث الانحراف عن الصراط المستقيم بدرجة محدودة أبقت هذه الفرق داخل دائرة الإسلام ، وإن كانت قد أخرجهن عن الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، فيكون دخولهم النار ليس على سبيل الخلود مع المشركين .

ولكن هذا القول لا يمنع أن يكون هناك من أمة الإسلام من كفر كفراً بواحاً وخرج

عن ملة الإسلام وخالف أصول العقائد وأركان الإيمان . وذلك مثل الإسماعيلية والقرامطة والنصيرية (العلوية) والدروز والقاديانية وسائر الباطنية وهؤلاء أجمع علماء الإسلام على كفرهم . ومن ثم لا تعد أمثال هذه الفرق من الفرق الإثنين والسبعين باعتبار أن هذه الأخيرة من أمة الرسول ﷺ عليه السلام .

سادساً : تحديد وحصر الفرق الإثنين والسبعين :

غني كثير من الكتب والمصنفات التاريخية والكلامية في تاريخ الإسلام قديماً وحديثاً بذكر الفرق وتاريخ نشأتها وإحصائها حتى أن بعضاً منهم حاول أن يحدد الفرق الثلاثة والسبعين التي أشار إليها الحديث . وقد أفرد بعض مفكري الإسلام كتباً خاصة لهذا الموضوع منهم على سبيل المثال :

الشهرستاني في كتابه : الملل والنحل .

ابن جزم في كتابه : الفصل في الملل

والنحل .

البغدادى في كتابه : الفرق بين الفرق .

الأشعري في كتابه : مقالات

الإسلاميين واختلاف المصلين .

الإسفرائيني في كتابه : إعتقادات فرق

المسلمين والمشركون .

الباقلائي في كتابه : التمهيد في الرد على

الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج .

ابن تيمية في كتابه : منهاج السنة النبوية

في نقد الشيعة والقدرية .

مخبراً إياناً من إتباع فئات من المسلمين سنن الأئم السابقة في الإبتداع والفرقة والإختلاف .

حتى يقول البعض : إن في تاريخ اليهود فرقة تُدعى المعتزلة قالت بنفس أو بأكثر المبادئ التي قامت عليها المعتزلة في العالم الإسلامي .

ولتفسير هذا نجد أنفسنا ملزمين باستحضار حقيقة إنسانية وهي أن العقل البشري محدود المبادئ والمسلمات والبيدييات العقلية ، والقوانين الفكرية المنطقية ، الضابطة لتفكيكه ، ومن ثم فإمكانيات الرأي البشري محدودة ، وقدرات المعرفة لدى الإنسان متناهية وليست مطلقة .

وهذا من شأنه أن يجعل السبل التي يسلكها العقل البشري ، في حالة إذا ما حاد عن الطريق المستقيم وترك مصادر الحق (الكتاب والسنة بالمنهج الصحيح الذي كان عليه الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم جميعاً) ، نقول من شأنه أن يجعل هذه السبل محدودة ، ومن ثم لا يستطيع العقل البشري وأجهزة الإدراك والمعرفة البشرية — في حالة ضلالها — إلا سلوك هذه السبل المحدودة ، وهي هي بعينها .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ ينبئنا أن اليهود عندما حادوا عن الصراط المستقيم ،

لقد حاول بعض هؤلاء ذكر اثنتين وسبعين فرقة تحقيقاً وتأويلاً لحديث الرسول ﷺ فلم يوفقوا إلى تصنيف لهذه الفرق يتفقون عليه . والسبب أن الفرق ستظل تزيد إلى آخر الزمان ، ولازلنا في هذا العصر نسمع عن تكوّن فرق جديدة .

كما أنهم لم يتفقوا على معنى كلمة « فرقة » هل هي الجماعة ذات المنهج الواحد والسبيل الواحد في فهم القرآن الكريم والسنة . أم هي الجماعة ذات الزعيم الواحد والمؤسس الواحد الذي جمع أتباعه على أصول إعتقادية واحدة .

بالمفهوم الأول تكون المعتزلة فرقة واحدة ، وبالمفهوم الثاني يمكن أن يكونوا أكثر من عشرين فرقة كُفر بعضهم بعضاً .

ومن ثم نقول أن عملية التصنيف هذه غير متفق عليها وغير محددة .

ولكن الذي يمكننا تأكيده كمعنى ثابت لحديث الرسول ﷺ في الفرق هو أن السبل الضالة الخارجة على الصراط المستقيم ليست لا متناهية ، وليست اتجاهات فكرية مستحدثة على تاريخ البشرية .

فمن حيث كونها محدودة العدد ذكرها الله عز وجل مُعرفة بالألف واللام (السبل) وحدد عددها الرسول ﷺ بإثنتين وسبعين .

ومن حيث كونها مطروقة من قبل ، فهذا واضح من قول الله « السبل » معرفة بالألف واللام ، ومن قول رسول الله ﷺ

سلكوا إثنين وسبعين طريقاً ومسلِكاً ،
فتفرقوا إلى إثنين وسبعين فرقة .

وكذلك النصارى سلكوا نفس السبل
فتفرقوا بنفس الفرق وبعدها . وكذلك فعل
المسلمون ، لأن الإنسان هو الإنسان لا
تتغير طبيعته بتغير الزمان والمكان ، وهو
عندما يختار الحق فليس أمامه إلا صراط الله
المستقيم ، فإذا انحرف عنه مؤثراً للضلال
والباطل والهوى والشهوات يجد أمامه من
السبل إثنين وسبعين .

يبد أن فرق المسلمين — إذا اعتبرناهم
من أمة الإسلام ، ولم يخرجوا من الملة — لم
يغلوا في دينهم وفي إختلافهم وفي تفرقهم ،
فلم يبعدوا عن الصراط المستقيم بالقدر الذي
بعدت به فرق اليهود والنصارى فخرجوا عن
التوحيد وكفروا .

سابعاً : لماذا زادت الفرق في تاريخ الإسلام واحدة ؟

قد يتوهم البعض أن تفرق المسلمين إلى
ثلاث وسبعين فرقة — بزيادة فرقة عن اليهود
والنصارى — يعني زيادة الفرقة بينهم ، مما
يوحي بأن حال اليهود والنصارى كان
أفضل . وهذا وهم خاطئ .

لأن هذه الفرقة الزائدة هي الميزة العظمى
التي يمتاز بها تاريخ أمة سيدنا محمد ﷺ
عن الأمم السابقة ، بل هي المنة الكبرى
والنعمة العظمى التي خص الله بها أمتنا ، ألا

وهي نعمة حفظ الوحي قرآناً وسنة باعتباره
الوحي الأخير من الله عز وجل إلى الناس
وباعتبار رسوله آخر الرسل والأنبياء وخاتمهم
جميعاً ، مما إستتبع ضرورة وجود طائفة من
أمة الإسلام ظاهرة على الحق دائماً إلى قيام
الساعة ، كما نص على ذلك حديث
للرسول ﷺ بهذا المعنى .

وهذا يعني أن الوحي محفوظ بعناية الله
عز وجل ، وأن الحق سيظل معروفاً لمن يطلبه
ويبتغيه وأن هناك جماعة ستمسك به على
طول الزمان ، منذ عهد النبوة إلى قيام
الساعة ، وهي الفرقة الثالثة والسبعين
الناجية ، الأمر الذي لا نجده في تاريخ اليهود
ولا في تاريخ النصارى ، حيث جاء على
اليهود اليوم الذي إندثر فيه الحق بينهم
وانمحت الرسالة الصحيحة وانقرضت الفرقة
التي كانت متمسكة بالصراط المستقيم أو
انحرفت عنه ، حتى أدركتهم سنة الله تعالى
في خلقه بارسال عيسى عليه السلام بالحق ،
ثم جاء على أمتة اليوم الذي اندثرت فيه
معالم الحق ومنهاج الحقيقة وانقرضت فرقة
الحق وانتهت وأصبحت فرق النصارى كلها
على ضلال وكفر وشرك ، حتى جاء الإسلام
ناسخاً للتوراة والإنجيل .

وحدث في الإسلام ما حدث في تاريخ
أهل الكتاب إلا أنه — ولأنه آخر الرسالات
— إمتاز عنهما باستمرار وجود فرقة الحق
الناجية إلى قيام الساعة ومن ثم صارت
الفرق ثلاثاً وسبعين فرقة .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الخلاف بين الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، وبين معاوية رضي الله عنه ، وكذلك التنافس بين بني هاشم وبني أمية ، وكذا العوامل القومية والإقتصادية وغيرها ، كل تلك العوامل لم تكن سوى عوامل مباشرة أو مساعدة في قيام الفرق وإنما العوامل الرئيسية هي ما ذكرنا من إختيار البعض الهوى والسعي وراء الفتنة والإختلاف حول النصوص المتشابهة حسب سنن الله الثابتة في الأمم ، وكذا الحرب الفكرية والاعتقادية من الأمم السابقة وإتباع أهل الزيغ لانحرافاتهم .

والسبيل الوحيد لوحدة الأمة الإسلامية وقوتها هو العودة إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ بالمنهج الذي كان عليه الصحابة والتابعون والفقهاء والمحدثون وجمهور علماء المسلمين ، الذين اتبعوهم بإحسان جيلاً بعد جيل .

نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى الحق لما اختلفوا فيه ، وأن يربط قلوبنا عليه ، وأن يمتتنا على صراطه المستقيم ، وأن يجعلنا من الجماعة المسلمة الناجية ، إنه سميع مجيب .

الموامش

- الأثير/الجزء العاشر صفحة ٣٥ تحقيق عبدالقادر الانزاوط .
 (٤) المصدر السابق صفحة ٣٦ .
 (٥) المصدر السابق صفحة ٣٢ .
 (٦) المصدر السابق صفحة ٣٢ .
 (٧) المصدر السابق صفحة ٣٣ .
 (٨) المصدر السابق صفحة ٣٤ .

- (١) الفرق الباطنية المعاصرة في الولايات المتحدة الأمريكية/رسالة ماجستير مقدمة من الطالب بلال فيليبس تحت إشراف المؤلف بقسم الثقافة الإسلامية .
 (٢) د . محمد عواد حسين/صناعة الفكر ... مجلة عالم الفكر (إبريل ١٩٨٤) ص ١١٥ .
 (٣) عن جامع الأصول في أحاديث الرسول لأبن

ترجمه عن الإنجليزية

د . محمد رفيقي عيسى

جامعة الكويت

